جامعة الأزهر
كلية أصول الدين

الشك بين الغزالي وديكارت

ك السيد محمود

تأليف الدكتور
محمد حسيني موسى محمد الغزالي

١٤١٦-١٩٩٦

تمهيـــد :

عاشت العقلية الاسلامية ردحا من الزمان ، تغذى العالم المفكـــر بالعلم وتزوده بالمعرفة ، وكان زادها يصل الى مستحقيه مباشرة فى شــكل بحث علمى أو فكر يقود الى الخير أتباعه ، أو معرفة ترسل أنوارها الى العالم المظلم المقيد بالاغلال الدينية الزائغة أو الافكار البشرية المنحرفة فتفـــك الأول من غله ، وتصحح للثانى مسار فكره ، بل تخطت ذلك كله الـــى استحداث وسائل تعليمية وأخرى تجارية قائمة على علاقات التبادل والمعاوضة لتصل بالنور الى كل مكان كما أمر بذلك دين الاسلام .

ولا يفتر التاريخ يذكر أن العرب أصل الحضارة الحديثة ، وأن رواد تلك الحضارة هم المسلمون الأوائل الذين لم تتوفر لديهم الا وسائل اليراع والقرطاس، هبة الله التى برزت عندهم فى شكل أفكار قويمة ومعلومات مدققـة. وكان لذلك أثره البارز ابان القرن الثانى الهجرى وماتلاه من قرون حتى بعد عالم الثورة الصناعية فى أوربا .

وحين كانت أوربا تقيد بأغلال رجال الدين الكهنوتى الذى لايســمح للعقل أن يفكر ، ولا للملكات أن تعبر عن نفسهاـ، بل ان الذى يحـــاول تخطى هذا الحاجز ، كان جزاؤه اما الحرق وتمزيق بقايا أدميته وطرده مـن الكنيسة ، واما اصدار أحكام الموت التى لا تراعى له ظرفا ولا تمكن لـه أن يدافع عن نفسه وكان ذلك لمجرد المحاولة ــ وكـان الاسلام على النقيـض

من ذلك كله يطالب العقل أن يبتكر، والمفكرين أن يقوموا بواجباتهم، نحو تنمية العقول، وتزكية النفوس والعمل على بعث النور الالهى بين العالمين .

ولا تحتفظ ذاكرة التاريخ للمسلمين بغير هذا . بل إنها لتزيد الأمر بيانا، فتدلى بأن قمم العلم المدنى والعلمى والتكنولوجى كانوا من المسلمين، وأن العالم كله الذى عاش ايامهم قد استفاد من نتاجهم العلمى وفى كل الميادين وبكافة المقاييس .

بيد أن بعضا من رجال الاستشراق فى العالم المعاصر غلبت عليهم نزعة عدائية . وبعض آخر طوتهم أنات مرضية . وآخرون انتزعتهم من الحق معلومات خاطئة، زودوا بها فراحوا جميعا فى موكب واحد يهاجمون العرب ويذمون المسلمين، ويرمونهما بالتعصب والتخلف والجهل . بل امتد هذا الرمى الى المقدسات التى أمر الله تعالى بالحفاظ عليها، والتى أخبر أنه سبحانه وتعالى الحافظ لها . القرآن الكريم فى قوله تعالى " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ " (١) وأصدروا أحكاما متسرعة مفادها أن القرآن الكريم والسنة المطهرة هما سبب تخلف المسلمين . ورغم أن هذا اعتراف منهم بأن المسلمين كانوا متقدمين . إلا أن أحكامهم تحمل من المغالطات الكثير . لأن آيات الذكر الحكيم . طالبت العقول أن تفكر وتبتكر . وأمرت العقلاء أن يستعملوا ملكاتهم . ولولا أن الله ابتلى المسلمين بالتفرق فى قرون لاحقة لظلوا لمواكب الحضارة الأب الشرعى والأم الرؤوم .

---

(١) سورة الحجر الآية رقم ٩

ولذا ستكون محاولتنا فى هذا البحث ـ الشك بين الغزالى وديكارت، الغزالى المسلم وديكارت الفيلسوف الفرنسى الحديث، هى التعرف على مناحى كل منهما وأيهما استفاد من الآخر حتى تصح دعواهم أو يتأكد للعالم كله أن ذاكرة التاريخ ماتزال تعى ماقام به العرب على العموم والمسلمون على الخصوص من نهضة علمية فى كل فروع العلم وانتاج المعرفة .

ولايخفى على ذى بال أننا فى هذه المحاولة لن نعمل على نصرة رأى الا بأدلته، ولن نقبل دليلا الا اذا كان فى غاية من الوضوح والدقة والقدرة على الثبات والاستمرار ، بحيث اذا عرضنا رأيا وكان خافتا فهذا لايعنى أننا نهمله، وانما يعنى أن هذا حظه من البيان، وقدره من الأدلة، ومكانه فى البرهان .

ولما كانت المقارنة ههنا بين الامام الغزالى، والفيلسوف الفرنسى ديكارت فى جانب من فكر كل منهما ألا وهو الشك فلا يعنى أن غيره لا يقارن، وانما لأن الشك ميدان غلب على كليهما استعماله ، واتخذ كل منهما الوسائل له وبذل كل منهما عنايته فى ابراز هذا اللون من الشك المنهجى لدى كل منهما .

وغير خاف على دارس الفلسفة أن الشك أتخذ له على مر العصور وكرّ الدهور أنصارا، كما وجد محبيه ينسلون من كل مجتمع، ويجتمعون من كل حدب وصوب ثم يتلاقى جمعهم على منهج واحد ألا وهو منهج الشك ، غير أن بعضهم كان يصل بهم شكهم الى الحقيقة التى ينشدونها، والحق الذى

اليه يرومون وهم أصحاب الشك المنهجي • ويسمى الشك البنّاء •

وكما وجد أصحاب الشك المنهجي، كذلك برز للجميع أصحاب الشك للشك الذين لا هم لهم الا هدم البناء واشاعة البغضاء، ونشر الغوغاء، لأنهم استعملوا منهج شك لا يقوم على أسس قويمة، ولا يعتمد على ركن شديد، وهم كذلك في كل مجتمع يوجدون • وبكل حيلة يظهرون، وعلى كافة الموائد يتلاقون •

لذا سنقصر الحديث على كشف اللثام عن الشك المنهجي لدى الامام الغزالي والفيلسوف الفرنسي ديكارت، راجيا أن يكتب الله لتلك المحاولة بعض التوفيق •

الفصل الأول

الشك فى اللغة والاصطلاح

الشك في اللغة والاصطلاح

أ — في اللغة والمعاجم : تقول اللغة :

" الشك هو التردد بين نقيضين لا يرجح العقل أحدهما على الآخر ، وذلك لوجود أمارات متساوية في الحكمين ، أو لعدم وجود أية أمارة فيهما ويرجع تردد العقل بين الحكمين الى عجزه عن معاناة التحليل أو الى قناعته بالجهل ، لذلك قيل : ان الشك ضرب من الجهل ، الا أنه أخص منه ، لأن كل شك جهل ولا عكس .

وقيل الشك ما استوى طرفاه ، وهو الوقوف بين الشيئين لا يميل القلب الى أحدهما فاذا ترجح أحدهما ولم يطرح الآخر فهو ظن ، فاذا طرحه فهو غالب الظن وهو بمنزلة اليقين " (١)

أ — الشك في اللغة : قال صاحب مختار الصحاح :

" الشك ضد اليقين وقد شك في كذا من باب رد ، وتشكك وشككه فيه غيره " (٢)

وقال صاحب التعريفات :

" الشك هو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك " (٣)

وقيل ان الشك هو " ادراك الطرفين من غير ترجيح بينهما " (٤) ولعل هذه التعريفات كلها لم تخرج عن الرأى الأخير الذى يؤكد على أن الشك

---

(١) د / جميل صليبا — المعجم الفلسفي دار الكتاب اللبناني — مكتبة المدرسة ج ١ ص ٧٠٥ مادة الشك والتعريفات ص ١١٣ .

(٢) مختار الصحاح باب الشك (٣) التعريفات باب الشين ص ١١٣ .

(٤) د / على محمد جبر — محاضرات في علم الكلام ص ٣٤ .

عملية عقلية تودى الى أمرين من غير أن يحكم بالترجيح لأحدهما على الآخر لذات الطرفين والذات المدركة أيضا ، وهذا كله من ناحية اللغة والمعاجم .

ب ــ الشك فى الاصطلاح الخاص :

ونعنى به حالة من حالات النفس البشرية ، لايتمكن صاحبها خلالها من اصدار حكم أو اتخاذ قرار ، سواء كان ذلك الحكم أو هذا القرار خاصا به أو بما يتعلق هو به ، وذلك لأمر راجع الى الشخص ذاته لا لأمر خارج عنه ، يرسم فى النفس صورا غير محددة ، وفى المشاعر معلومات غير موثقة ، تجعل صاحبها ينظر الى نفسه كالمريض الذى يحتاج الى علاج .

١ ــ الشك عند الامام الغزالى

نجد الامام الغزالى يصور الشك عنده ، بأسبابه فيقول " فلما خطرت لى هذه الخواطر ، وانقدحت فى النفس ، حاولت لذلك علاجا فلم يتيسر ، اذ لم يكن دفعه الا بالدليل ، ولم يمكن نصب دليل الا من تركيب العلوم الأولية ، فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب الدليل " (١) وتلك الحالة هى ما يعبر عنه بالاجهاد الخلوى الناشىء عن مزيد من التركيز العقلى المصاحب للمجهول البدنى وقد تدوم تلك الحالة النفسية وقتا كبيرا أو قليلا ، كل ذلك يرجع الى الحالة نفسها واستعداد صاحبها ، والوسيلة التى يمكن بها مقاومة هذا الشك .

---

(١) الامام الغزالى ــ المنقذ من الضلال مع أبحاث التصوف ص ١١٤ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ــ دار الكتب الحمدية .

وهى لم تطل عند الامام الغزالى لذلك تراه يقول " فأعضل هذا الداء ودام قريبا من شهرين أنا فيهما على السفسطة بحكم الحال لا بحكم المنطق والمقال حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة ، موثوقا بها على أمر ويقين ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر العلوم " (١) حتى إن البعض أعتبر هذا النور المقذوف مساويا للعقل ذاته لأن الشاك يصير فى حالة كأن صاحبها لا عقل له فلما يقذف الله النور فى قلبه يعود الى سالف عهده ، فميز بين الحق والخطأ ويدرك من العلوم ما يحتاج اليه ، ولذا قالوا أن " العقل نور روحانى به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية ، وهذا أسلم الأقوال " (٢) وسواء كان الشك مساويا للتردد فى الحكم ، أو زائدا عليه ، فما لا شك فيه أن الشاك نفسه يكون فى حالة صحية غير مستقرة الى أن يتلاقى مع شكه أمر بالايجاب يعيد لصاحبه الهدوء ، وينشد له الاستقرار حتى ينطلق فى حياته الفكرية على هدى والعامة على وجه يمكنه من التعامل مع الآخرين ، فى صورة تفاعلية يتحقق فيها التوافق والانسجام ، ولذا رأينا الامام الغزالى بعد شكه مؤمنا قويا ، ومفكرا عملاقا ، ومتصوفا ينسجم سلوكه مع فكره .

---

(١) المصدر السابق ص ١١٥ الطبعة السابقة .

(٢) الامام شهاب الدين احمد الملوى — شرح المسلم طبعة الادارة العامة للأزهر ص ٣ .

٢ ـ الشك عند ديكارت .

أما ديكارت الفيلسوف الفرنسى الشهير فإن الشك عنده هو عبارة عن " فعل من أفعال الارادة فهو منصب على الأحكام لا على التصورات والأفكار لأن التصورات من غير حكم لا تسمى صادقة ولا كاذبة " (١) وبالتالى فان الشك بالنسبة لديكارت يؤدى مهمة عاجلة حيث يقول " كلما ازددت شكا ازددت تفكيرا فازددت ايمانا بوجودى " (٢) اذن فان ديكارت قد أخبرنا بقيمة الشك عنده والوظيفة التى يعلقها عليه .

بيد أن رينيه ديكارت يصرح فى بيان واضح العلاقة بينه وبين الشك وأسبابها فيقول " ان التأمل الذى عكفت عليه أمس ـ التأمل الاول ـ غمر نفسى بشكوك كثيرة لم يعد فى مقدورى أن أنساها ، ولا أن أجد الى دفعها سبيلا، فكأنى سقطت على حين غرة فى ماء عميق جدا، فهالنى الأمر هولا شديدا ، فما أنا بقادر على تثبيت قدمى فى القاع ، ولا على العوم لتمكين جسدى من سطح الماء " (٣) .

ولكن يبدو للناظر العجول أن ديكارت شك فى كل شىء مباشرة وفى وقت واحد ، غير أن هذا غير صواب ، لأن ديكارت قد شك فى أشياء كثيرة وعلى مراحل متعددة ، هى على النحو الذى سنوضحه فى مكانه من هذا البحث لأن ديكارت يقول " ينبغى لى أن أرفض كل ما يخيل إلىّ أن فيه

---

(١) الدكتور / عثمان أمين ـ ديكارت ص ١٠٣

(٢) " / توفيق الطويل - أسس الفلسفة ص ٣٢٤

(٣) ديكارت ـ التأملات ترجمة د / عثمان أمين ص ٦٩ التأمل الثانى .

أدنى شك وذلك لأرى هل يبقى لدىّ بعد ذلك شيء لا يمكن الشـــك فيه أبدا " (١) .

٣ — الشك عند كلود برنـــار

يؤكد كلود برنار على وجود الشك ويحدد واجب العالم الذى تعـــرض للشك فيقول " يجب على العالم أن يفرّق بين الشك والريب ، فالريب ينكر العلم ويؤمن بنفسه أما المتشكك فإنه يشك فى نفسه ويؤمن بالعلم وجنون الشك أو داء الشك — ما هو الا — اضطراب عقلى مصحوب بالعجز عن الحكم ، أو بالعجز عن ترجيح أحد الحكمين مهما تكن أماراتهما واضحة " (٢) .

---

(١) الدكتور / جميل صليبا — المعجم الفلسفى ص ٧٠٥

(٢) المرجع الســـابق ص ٧٠٦ .

الفصل الثانى

الشك بين النظرية والمنهج

(الشك بين النظرية والمنهج)

عاش بعض الناس فى كثير من العصور يتعاطون الشك حتى صار لهم منهج حياة سلكه بعض المفكرين ، بل وممن يتعاطون الفلسفة أو يدعونها ، وكان ذلك قديما وحديثا ، وكلهم استخدم منهج الشك كطريقة يصلون من خلالها الى كل ما يريدون ، ان بناء أو هدما ، مما يجعلنا نقسم اتجاهاتهم الى قسمين :

الأول : الشك كمنهج فى الحياة . الثانى : الشك منهج لليقين .

وقد ميز بينهما المعجم الفلسفى فقال : " وجنون الشك أو داء الشك اضطراب عقلى مصحوب بالعجز عن الحكم أو بالعجز عن ترجيح أحد الحكمين مهما تكن أماراتهما واضحة ، ويطلق هذا الاصطلاح أيضا على المبالغة فى اجترار المسائل الفلسفية المتعارضة أو على الميل الى البحث فى أسباب الأشياء التافهة ، أو على الخوف من وقوع الحوادث ، أو على المبالغة فى القلق والتوهم وسوء الظن ، والشك المفرط عند ديكارت شك منهجى شامل يمتد الى كل شئ ، وهو شك نظرى ومؤقت لاينطبق على الحياة العملية " (١)

وهذا النص رغم عمومه فانه يؤدى الى معطيات كثيرة ، فيها تفرقة بين الشك المنهجى المؤدى الى نتائج ايجابية ، وبين الشك السلبى الذى

---

(١) الدكتور / جميل صليبا ـ المعجم الفلسفى ص ٧٠٦ .

يهدف الى الهدم ، كما تؤدى تلك المعطيات الى التفرقة بين الأفكار الفلسفية القائمة على الشك ، والأخرى التى تتبنى قضية الشك ، كما يفرق بين الشك المفرط والآخر المعتدل .

ومع هذا فقد ظهرت مدرستان للشك على مدى التاريخ ، وبرزت كل منهما بأسلوبها وطريقة معالجتها، وهاتان المدرستان هما :

المدرسة السوفسطائية :

(١) وقد اعتبرت الشك أصلا للشك .

(٢) الشك غاية لهدم الحكمة والقيم .

(٣) الشك نظرية لا تقبل التطبيق العملى لأنه يمثل حالة فردية لصاحبه فقط .

وقد امتد هذا الاتجاه حتى فى الوقت الراهن نلاحظ الكثيرين ممن يسيطر عليهم الشك فيحولهم إما الى مرضى بالوسواس القهرى أو قساة القلوب خارجين على كل قيم نبيلة ، رافضين لكل فكر سليم ، كارهين لكل توجيه ولو كان من لدن حكيم عليم ، وأبرز شكاك العصر الحديث الفيلسوف مونتانى وسانشيه الذى كان يقول " كلما أزددت تفكيرا ازددت شكا[١]

---

(١) الدكتور / توفيق الطويل — أسس الفلسفة ص ٣٢٦

لقد كان الشكاك يرددون دائما اننا نشك حتى فى أننا نشك " ونحن نشك حتى فى الشك نفسه " ، وقد سارت تلك الأفكار أوساطا مختلفة وتمكنت من اجتذاب العديد اليها ، وكانت تمثل فى كل مجتمع شرذمة خارجة عليه، وفى كل عصر صعاليك يعيشون على عرق غيرهم ، وذلك لأن طبيعة الانسان متى استولى عليها الشك ضعفت قواه، وتحطمت معنوياته وخارت كوامنه الأساسية ، وتحول من انسان طبيعى الى مريض يطارده الشك ويقتله الهاجس ، انها نظرية تستوجب الشك حتى فى الشك نفسه .

من هنا وجدنا التاريخ يحدث عن هؤلاء الشكاك حديثا تحفه المذمة، وتحوطه الشبه، وتغذيه الأفكار الشريرة بل والسيئة فى وقت واحد .

أما الشك لدى الامام الغزالى وديكارت فقد تميز بالخصائص الآتية :

١ ـ أنه شك منهجى ، يعتمد على المنهج الموصل الى غاية منشودة .

٢ ـ انه وسيلة يتوصل بها الى اليقين عند الامام الغزالى وديكارت .

٣ ـ أنه شك ايجابى ينشد الطمأنينة ويحث على العمل الايجابى الموصل الى العلم اليقينى سواء كان طريقه العلوم الرياضية أو الحقائق الميتافيزيقية كالنفس والروح واثبات وجود الله تعالى ، بحيث يمكن القول بأن الشك المنهجى أساس المعرفة الحقة، ومدرسة الحقيقة، ووسيلة اليقين، وقد تمثل ذلك الاتجاه كل من الامام الغزالى والفيلسوف الفرنسى ديكارت .

وقد أثبت الغزالي تجربته في كتابه الشهير " المنقذ من الضلال "، حيث يطالعنا من خلال سيرته الذاتية بأنه شك في كل شيء حتى وصل من شكه الى يقين قوي ، وكذلك فعل ديكارت في تأملاته ، ومقال عن المنهج ، وان كانت بينهما فروق فهي :

١ — أن الامام الغزالي قد خرج من شكه بنور قذفه الله في قلبه ولولا ذلك النور لبقي في خضم الشك تتقاذفه اللجج ، وربما امتدت به أو أنزلته الى بحار لايتمكن فيها من الغلبة ، ولولا نور الله الذى قذف لما عرف .

أما ديكارت فقد خرج من شكه الى اليقين بالنظر والاستنتاج والتأمل ومحاولة السيطرة على العواطف الارادية في نفسه ، ولم يكن شكه جملة وفي وقت واحد ، كما كان عند الامام الغزالي ، وانما هو شك مرحلي مارسه بارادته المطلقة وعقليته الواعية .

٢ — أن الامام الغزالي حين يجرى له استقراء باطني ذاتي ، بحيث يطلب منه رسم الطريق الذى خرج به من شكه ، لايجد جوابا الا القول المشهور " من ذاق عرف ، ومن حرم انحرف " ، اذن أمره قائم على الذوق الخالص ، والوجدان المميز .

أما ديكارت فانه يستطيع أن يرسم لك طريقه ، وأن يسجله ، وأن يعيده مرة أخرى ، بل ومرات عديدة ، انه شك يقوم على امكانيات

العقل ، والرغبة فى الاحتكام الى قدراته .

٣ - الامام الغزالى ترك نفسه للعناية الالهية بعد أن عجز عن المقاومة " وكان المخلص له من أزمته هو النور الالهى ، الذى قذفه الله فى القلب .

أما ديكارت فقد كان على وعى تام من أول التجربة ، وظل على ذلك طوال الطريق ، وتمثل ذلك فى استخدامه التجربة ورسمه الطريق فى قواعده الأربع التى ضمنها كتابه " مقال عن المنهج " والتى أعتبرت طريقة لتمحيص المعارف الانسانية ، وبالتالى يصير الشك لدى الامام الغزالى وديكارت شكا منهجيا يؤدى الى غاية نبيلة ويسوق الى معرفة الحقائق بطريقة يقينية لادخل فيها للشهرة وذيوع الصيت ، ولا مكان فيها للحواس ، أو الأفكار الموروثة والمبادىء التى لم تعرف لها حقيقة تدافع عنها .

الفصل الثالث

أسباب الشك عند الإمام الغزالى

تمهيـــد :

تعددت الابحاث عن الامام الغزالى بشكل ملفت للنظر ، حتى كأنـه الوحيد المفكر، والفيلسوف والصوفى والفقيه والسياسى والاقتصادى فى العالم الاسلامى وغير الاسلامى ، بل قل كأنه هذه وتلك جميعا ، وقد تجاوزت بعض الدراسات تلك النقطة وصعدت به الى قمة أعلى مما كان الامام الغزالى نفسه يتصورها واجلسته فى منزلة ما فكر هو فيها يوما الا على سبيل التمنى .

وعلى الجانب الثانى برزت دراسات أخرى كرد فعل للأولى حاولـت تحجيم الامام الغزالى وفكره من خلال وجهه تقويمية تقول للغزالى قف حيث أنت بعداوتك للعقل ونشدانك المواجيد التى لا تمكن صاحبها من اصـدار حكم يقينى أو قريبا منه ، وأدى ذلك الى تحريم كتبه ودراساته فى المغـرب العربى واتهم بمثل ما كال به لأقرانه فى المشرق العربى،حتى ان كتبه كانت تحرق ويجرّم من توجد لديه .

بيد أن الباحث المنصف لاينظر الى المعجب المَولِه،ولا الى الكاره المذم ، وانما ينظر الى فكر الغزالى نفسه فما رآه متفقا مع ميزان العقل الرشيد والمنطق السليم قُبِل ، وما كان غير ذلك رُد ، وكذلك ينظر فى أدلة الخصوم وحجج الأتباع فما كان منها موافقا الصواب اتبع ، وماكان مخالفا له اجتنب وذلك آمر نقف عنده ولن نبرحه .

" أسباب شك الامام الغزالي "

تختلف الاتجاهات في أسباب شك الغزالي الى أكثر من جهة ولكل وجهة ، ونحن نجملها على هذا النحو ثم نميل الى ما تغلب أدلته .

السبب الأول : سياسي :

ومؤداه . أن الغزالي جاء في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري حيث ولد في ٤٥٠ هـ وكان الحكام السلاجقة الطغاة المستبدون ، كغيرهم من الحكام يتذرعون بالدين أمام الجماهير ويتعلقون بالشريعة حتى تنطلي على العامة والدهماء الحيلة ، وكانت بينهم والدولة الفاطمية الشيعية حرب ضروس فأعلنوا للناس أن حربهم لاهدف منها الا اقامة الحكم السني ،ونشر تعاليم الدين الاسلامي الحقة ، وأنشأوا لذلك المدارس واستعملوا عليها رجال الدين فقويت الصلة بين الحكام ورجال الدين ، وصار من الممكن تجاوز تلك الصلة حتى وصلت الى علاقات المصاهرة ، بل صار التظاهر بالعمل بفقه السنة فرصة للجاه والتقرب للسلطان .

وحينذاك وقف السلاطين ورجال الدين في صف واحد يواجهون عدوا مشتركا من المعتزلة والفلاسفة ومن لايقنع بظواهر النصوص بل يغوص الى الأعماق مستخدما سلاح العقل والمنطق وقد وقعت المواجهات العديدة بين أنصار العقل — المعتزلة والفلاسفة ومن معهم — من ناحية وبين الحكام

ورجال الدين من ناحية أخرى ، وكانت الغلبة فى الشكل العام دائما للجيش متمثلا فى السلطان ورجال الدين حتى أن العامة انحازوا للسلطان وحسم لرجال الدين الأمر، بأن أصدروا فتاوى تؤكد أن التفكير والزندقة جريمة لا تغتفر، وذنب يجرّم به صاحبه، وسمحوا للعامة بالدخول الى تنفيذ تلك الأحكام بل والقائها على من يريدون ، وكم يفعل الجاهل حين يتولى منصب العالم ، فكان من جراء ذلك أن شاع بين الناس لفظ الكفر وانبجس فيهم الانحلال الخلقى، المتمثل فى الكذب، والنميمة والوقيعة والدسيسة بل ونسبة الباطل لغير صاحبه ، وكان كل فريق يحاول التأكيد بأنه على حق وغيره فى ضلال مبين " ومن جراء هذا الجو المتنازع المضطرم، حلت بإمامنا الغزالى محنة من الشك المحض العنيف فأى الفرق على حق ؟ وبأى ميزان يوزن هذا الحق ؟ وبلغ شكه حدا أورثه أزمة طاحنة عقدت لسانه ، وأعجزته عن هضم الطعام وطرحته فى الفراش شهرين ، أجمع الأطباء على أنه داء عضال لا دواء له الا الفرج أو كما نقول بالمصطلحات العصرية أزمة نفسية ليس لها علاج اكلينيكى . (١)

وعلى هذا يكون السبب الرئيسى لشك الامام الغزالى هو تلك الحالة الناشئة عن الاضطراب السياسى الذى أحدثته صلة رجال الدين بالحكام السلاجقة ، وتناحر الفرق فيما بينهم، ووقوع العامة فريسة لتلك العملية التى

---

(١) د / يمنى طريف الخولى — جريدة الاهرام المصرية عدد الجمعة ١٩٨٨/٤/١، عمود ١ بعنوان اليقين والعلم بين الغزالى وديكارت .

أراده الحكام واتخذوا لها رجال الدين كستار يختبئون خلفه حتى لكأن الدين هو الذى يأمر بهذا، وينهى عن ذاك .

ونحن وان كنا لا نؤيد هذا الرأى بكل ما يحمله فاننا لا نختلف معه فى أن العامة وأنصاف المثقفين هم الذين يسارعون دائما لاصدار الأحكام، واشاعة الافكار دون نظر الى ما تتركه تلك على المجتمع الذى تحل فيه أو تقع به ، كما أنهم فى الغالب — الضحايا التى تتحمل عبء الصراع والنتائج الحتمية ، وبخاصة اذا وقعوا تحت تعبئة لاشعورية ، يعيش فيها العداء ويستحكم ، وتنتصر فيها البغضاء وتحكم .

السبب الثانى : نفس مرضى :

ومؤداه ، أن الثقة التى تصورها الغزالى فى ملكاته ، وقدرته على صياغة القضية وعكسها ، وامكانية اقناع الغير بهما معا ، ثم دخوله الحرب الطويلة مع نفسه من حيث النشأة التى درج عليها كيتيم ترعاه وأخاه أرمل فقير لا تملك من حطام الدنيا شيئا ، ثم تمكنه من العلم ، وانتصار العقل له ، وذيوع شهرته وانتشار أفكاره، جعل ذلك يعتمل فى نفسه، وينطوى فى وجدانه ، فدفعه الى الغرور الذى يعتبر بابا من أبواب المهلكات .

ثم إن أزمة تعرضه للسرقة مع ضعفه عن مقاومة اللصوص كل ذلك ترك فيه نفسا ضعيفة ترى الشهرة فتسعى اليها ، وتعرف الحكام فتنقلب اليهم وترى

الفقهاء والفلاسفة كأخوة طريق فتصرف نفسها عنهم بل وتستعد لحربهم بل هوادة في قتال لا يلين .

كما أنه عاش في ريعان شبابه يحاضر للخاصة ، ويجالس العلماء ويحاورهم بل وينتصر عليهم،هذا كله أوجد في داخله نفسا قلقة لا هي بالقادرة على الانتصار ولا بالقديرة على دفع الغير عنها . هذا كله جعل الغزالي يعيش فترة من الفكر الدؤب ، في محاولة منه لاكتشاف ذاته والتعرف على هويته التي يعيش بها بين الناس .

ونفس كهذه ، مع شخص كهذا جديرة بأن تنال منها العلل ، وتزلزلها عن يقينها الظروف ، ولما استغرق في هذا التفكير وقع فريسة للشك القاسي والقلق الدائم ، والاضطراب المستمر ، وهو ما يعبر به عن نفسه فيقول :

" فلما خطرت لي هذه الخواطر ، وانقدحت في النفس ، حاولت لذلك علاجا فلم يتيسر ، اذ لم يكن دفعه الا بالدليل ولم يمكن نصب دليل الا من تركيب العلوم الأولية ، فاذا لم تكن مسلّمة لم يمكن تركيب الدليل ، فأعضل هذا الداء ، ودام قريبا من شهرين أنا فيهما على السفسطة بحكم الحال، لا بحكم المنطق والمقال ، ثم يكشف النقاب بنفسه عن نوع الداء وأنه داء نفسي فيقول : " حتى شفى الله تعالى ، من ذلك المرض ، وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة ، موثوقا بها على أمن ويقين .

---

(١) المنقذ من الضلال ص ١١٤ ، ١١٥ تحقيق د / عبدالحليم محمود .

وكم دافع الغزالى عن فكرة الشك وطالب بها فى أكثر من موضع ، بل وفى اكثر من مؤلف له ، حيث نراه فى ميزانه يقول كالحكم النهائى " من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال "[1]

وغير خاف أن ذلك السبب لا يكفى لتكوين فكرة عامة عن شك الغزالى ، وبالتالى لا يصلح ليكون دليلا على أن شكله كان نوعا من المرض النفسى ولا سببا له ولا به ، وأن الغزالى فى شكه كان منهجيا من اللحظة الاولى حيث شك فى الحواس ثم المسلمات العقلية التى لم تبلغ اليقين ، وهذا شك منهجى ما فى ذلك شك .

السبب الثالث : الحالة الاجتماعية :

ومؤداه ، أن الامام الغزالى تناولته الريب حين عزم على الترحال ، وفوجىء بأبناء النصارى ينشأون على التنصر ، وأبناء اليهود يشاون على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم الا على الاسلام ، وبالتالى يكون الواقع الاجتماعى هو الذى فرض على الناس هذا أو ذاك بل ان هذا الأمر ليزداد رسوخا حين يلاحظ أن القوى يتبع الناس رأيه لا لصوابه بل لأن قائله قوى

---

(١) الامام الغزالى . ميزان العمل ص٤٦

يمكنه أن يدافع عنه ، لا بالحجة والبرهان وانما بالسيف والسنان .

كما هاله ترك الناس رأى الفقير، لمجرد أنه رأى صادر عنه،كما أنـــه يعجز عن اجبار الناس على اعتناقه والقيام به ، من هنا هب الغزالى مـــن داخله بثورة عارمة لم يجد لها متنفسا غير الشك الذى افقده الثقة فى مسلماته كلها، ودفعه الى الاستكانة والرضوخ للمرض ، وهو الذى عرفت عنه القـــوة والشجاعة بل والاستمرار فى المقاومة لكل ما من شأنه أن يعوقه عن المهمـــة التى كلف نفســه بها .

ولعل مبررات هذا الرأى خوف الغزالى من إفشاء تلك المشاعر وأنـــه لم يكاشف الناس بشكه الا حين أجمعوا أو كادوا يجمعون على تقديسه " (١) لأن الطبيعة الانسانية فى رأى الغزالى فيها من المرض ما يبعدها عن الفعل الصواب " ، والغزالى يسيء الظن بالطبيعة الانسانية ويرى العمل فى الأغلب لايراد به الا نيل الثواب ، أو الفرار من العقاب ، ولايزال بالطبيعة الانسانية يفحصها ويسبر أغوارها بمسبر الشك والارتياب حتى يصل بعد الفحص الى أن هنالك رياء " هو أخفى من دبيب النمل " (٢) .

---

(١) الدكتور / زكى مبارك ـ الأخلاق عند الغزالى ص ٣٤٣ طبعة الشعب .

(٢) المرجع السابق ص ٣٥٢ .

ونحن وان كنا نرى أن فى هذا الرأى تجاوزا ، وحكما على الملكات العقلية عند الامام الغزالى متسرعا فاننا لا نشك فى أن العقل الجمعى والهيئة الاجتماعية تؤثر بشكل بسيط ، وان كل وسائل التقليد فى الاعتقاد وبخاصة الأطفال قد قطعها الحديث الشريف الذى لا يغيب عن ذاكرة عالم كالغزالى وهو قوله صلى الله عليه وسلم " كل مولود يولد على الفطرة وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة (١) وقوله تعالى : " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " (٢) ، ويمكن القول بأن هذه الأسباب جميعها هى التى أوجدت الشك لدى الامام الغزالى ، وأنها زودته بكل ما كان فيه من قسوة وقوة وضراوة ، وأن نور الله الذى قذف فى قلبه كان هو المخرج الوحيد له من شكه كما عبّر عن ذلك الغزالى بنفسه .

---

(١) حديث شريف

(٢) سورة الروم الآية ٣٠

قيمة الشك عند الغزالي

يؤكد الامام الغزالي أن للشك قيمة عظيمة ، وبخاصة اذا تعلق في المعتقدات التي يتلقاها المقلدون أن يستدل عليها ، فيقول " في نهاية الميزان : ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات الا ما يشكك في اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب ، فناهيك به نفعا ، اذ الشكوك هي الموصلة للحق (١) اذن الشك عند الغزالي له قيمة ، هي الوصول الى الحق والعلم اليقين ، وان كان هذا الشك في الاعتقاد يلزم كل من تمكن منه ، مادام الشك سبيلا لليقين ، لكن لابد أن يكون هذا الشك بمقدار محدد لمن يتمكن منه ، أما من لم يتمكن منه فليس الشك واجبا عليه يلزمه القيام به ، ولذلك نراه يؤلف كتابا يقف فيه من العوام موقف الناهي المخلص والناصح الأمين . (٢)

بيد أن تلك العملية الشكية لم يجعلها الغزالي قاسما مشتركا يتفرق بها الناس وتدب بينهم الخلافات ، وانما يرى أن هذا الشك الموصل الى اليقين يقوم به كل فرد دون أن يؤدى ذلك الى تفرقة الهيئة الاجتماعية لدى المجتمع كله ، لأن الغزالي يحب استمراره بالهيئة التي هو عليها ، ثم ان قيمة الشك لاتقتصر على ما مضى ، وانما جعلت الغزالي يقبل العقل كمصدر صحيح للمعلومات " وكان قد نهض من الفراش بنور قذفه الله في صدره ، جعله يثق في العقل كميزان ، مبقيا على شكه في الموازين الأخرى ، وفي كل الفرق عازما على تحديد موقفه من الاتجاهات الأربعة الرئيسية

---

(١) ميزان العمل نقلا عن الأخلاق عند الغزالي ص ٢٣٣ .
(٢) هو كتاب الجام العوام عن علم الكلام .

المشكلة لبنية الحضارة الاسلامية " (١)

وبالتالى فان الباحث عن قيمة الشك عند الامام الغزالى يجد أمــورا عديدة كانت كلها نتاج تمخض عن الشك بحيث تعتبر قيمة له منها :-

١ — أن الشك موصل للحق مادام منهجيا، وقصد به ذلك .

٢ — أن الشك يودى الى اليقين لأنه طريق اليه ، متى كان غرض صاحبه ذلك

٣ — أن الشك لا يبدأ من فراغ ولا ينتهى اليه ، انما يبدأ عن نضج فكــرى لازم لصاحبه ، يدفعه الى المزيد من التأمل والكثير من الدقة حتــى يسلمه الى شك لا ينفك وعزيمة لا تفتر، وقلق لا يهدأ ، وقد ينتهى بــه الى المزيد من السلبيات، ونعنى به الشك للشك، ويأخذه الى قمـــة الايجابيات كما هو الحال مع الامام الغزالى ، الذى يقرر أن الشـــك أول مراتب اليقين .

اذن فالشك قد أسلم الغزالى الى القلق والاضطراب لكنه بعد أن شفى وجد نفسه يثق فى العقل وقدراته، لذا نرى الغزالى شد " يديه جميعــا على العقل فرحا به مسرورا، أما ما عداه فلم يأبه له ، وهذا العقل أو هـــذه الضرورة العقلية — كما يسميها هو — مادامت موثوقا بها هذا الوثوق التــام فانها يمكن أن تتخذ وسيلة الى العلم اليقينى الذى يبتغيه ، وبهذا يكــون الغزالى قد خرج من الشك الذى كان دائرا حول موازين الحقيقة " (٢) .

---

(١) جريدة الأهرام المصرية بتاريخ ١٥ / ٤ / ٨٨ عدد الجمعة — اليقيــن والعلم بين الغزالى وديكارت د / يمنى طريف الخولى — العمود الاول .

(٢) الامام الغزالى — تهافت الفلاسفة ص ٥٤ تحقيق د / سليمان دنيا ط ٥

كما أن كل شك ليس صوابا ، بل البعض الذى استخدم له المنهج هو الصواب ، كذلك فان " الشك الفلسفى الذى يمارسه المرء بنفسه هو فقط الذى يمكن أن يقود الى يقين حقيقى، أى يقين ميتافيزيقى يتحدث من أعماق الشخص نفسه ، حيث لا يستطيع بمجرد الارتياب العشوائى ، أو مجرد الفحص العقلى أن يصل اليهما " (١) بل وتكون له نتائج ايجابية على الفرد ذاته من حيث كونه مستعملا الشك الفلسفى •

ثم ان الشك يودى الى اليقين فيزول الشك ذاته خاصة إذا تعلق بأمر العقيدة وهذا ما جعل الامام الغزالى يعتبره واجبا فيقول " لأن ازالة الشك فى أصول العقائد أمر واجب ، ووقوع الشك عند بعض الناس ليس بمستحيل ، من ثم كان لابد من أشخاص يعلمون هذا العلم ، اذ هم الذين يستطيعون أن يدروا الشك فى العقيدة ويطمئنوا النفوس اليها " (٢)

اذن من قيم الشك اللطيفة أن الشك يزيله الشك المودى الى اليقين والدافع للوصول الى الحق والهادف الى تكوين معارف يقينية تتعلق بالله والعالم والقيم والحياة الأخرى ، هذا ما يمكن أن يفهم من قيمة الشك عند الامام الغزالى ، فما هى أسباب الشك وقيمته عند ديكارت ؟ هذا ما سنعرض اليه فى الفصل الثانى ان شاء الله •

---

(١) د / محمود حمدى زقزوق ـ المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت ص ٧٢ ط الانجلو المصرية سنة ١٩٧٣ م •

(٢) الامام الغزالى ـ الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢ تحقيق د / طاهر عبدالمجيد الطبعة الاولى سنة ١٩٧٠م التمهيد الثالث•

الفصل الرابع

أسباب الشك عند ديكارت

تمهيـــد :

عاشت أوربا بعد الثورة الصناعية ، عصرا من القلق والتوتر وبل والترقب والانتظار ، وكانت آمال الناس تتعلق دائما بالمصلحين بيد أن جهود هـم ما ان أوشكت على اتيان ثمارها حتى وجدوا بيكون الفيلسوف التجريبى ــ ٢٢ يناير ١٥٦١ ــ ٩ ابريل ١٦٢٦ م يعمل على تدعيم العقل والمنطق ، بعيدا عن مألوف للناس قديم واعتقاد لهم راسخ لا أساس يقوم به ، ويستخدم لذلك سلاح الاقناع العملى والتجربة الملموسة ·

ولم يمض وقت طويل حتى اهتزت انجلترا كلها على الخصوص وأوربـــا على العموم بفيلسوف قوى عنيف يؤمن بالآلية ، ويقرر الذرية ، ويرفض الاقتناع النظرى ، ولو كان من رجال الدين المسيحى ذلكم هو الفيلسوف الانجليزى ، " توماس هوبس ١٥٨٨ م ــ ١٦٧٩ الذى أمد الله له فى العمر فأحـدث تحولا خطيرا فى مجرى الفكر البشرى فى أوربا عامة وانجلترا خاصة ·

وكان من نتيجة ذلك التحول زعزعة الكثير من القيم وانهيار الأخـلاق ، وانعكس ذلك كله على سلطان الكنيسة ، وهيبة رجال الدين المسيحى ، الذيـن فرضوا على الناس تعاليم مغلقة وتزمتا غير مقبول ، شل حركة النشاط الانسانـى تقريبا ، وبات الناس على أمل قوى فى مفكر جرئ يعيد اليهم الأمن السليب ·

وبينما الناس على ذلك الأمل اذا هم بفرنسيس بيكون " يطل عليهـــم بأوهامه الأربعة التى كانت عاملا قويا فى زلزلة ثقة الناس فى السلطان الكنسى

والعقل المزود بالمعارف التلقائية ثم اعقبه " توماس هوبس " الذى كان صريحا فى نقد الكنيسة بكل ماتعنيه كلمة النقد حتى بدأت فعلا تنهار الأسس التالية :

١ ـ الدين من خلال انهيار السلطان الكنسى لرجال الكنيسة •

٢ ـ انهيار القيم والمواصفات الاخلاقية ، لعدم وجود ميزان يفرق بين الحق والصواب فى معركة الفلاسفة مع الكنيسة ورجال الدين المسيحى •

٣ ـ انهيار القيم التقليدية وصار كل شىء موضعا للشك والسخرية والريبة على أقل تقدير •

اذن ظهرت فى أوربا مع مطالع القرن السابع عشر ، حركة شك عنيفة، وصراع تلقائى بين قيم مألوفة وأخرى ثورية تريد أن تلوح ، فتزيح من طريقها كل شىء ، وهذا الصراع الحاد العنيف القلق بين التقليديين والمجددين يذكّر بحركة السفسطة والجدل فى العصر الاغريقى ، وبالتالى كانت أوربا كلها فى حاجة الى فيلسوف حديث يقف من سفسطة عصره ما وقفه سقراط الاغريقى من سفسطة العصر الذى عاش فيه ، وكان سقراط هذه المرة هو " رينيه ديكارت " فيلسوف فرنسا الحديث الذى أعتبر بحق أبا للفلسفة الحديثة ٣١ مارس ١٥٩٦ ـ ١١ فبراير ١٦٥٠ م فما هى أسباب شكه ؟

أسباب الشك عند ديكارت

السبب الأول : ظروفه البيئية :

ونعنى به أن البيئة التى عاش فيها ديكارت هى التى فرضت عليه ذلك نظرا للظروف التى تعرض لها هو وتعرضت أوربا كلها لها من شك عنيف كاد يطيح بمسلمات الناس وتقاليدهم ومألوفاتهم ودياناتهم ليحل بدلا منه جدل لا يفتر وشك لا يهدأ ، وصراع لا يلين ووجود " مونتانى فيلسوف الشك الفرنسى الذى كان يعيد للأذهان حركة الشك المطلق التى عاشها الناس أيام زينون الايلى ، والذى استطاع أن يزلزل الحقائق ، ويشكك فى الواقع مستخدما منطق العقل وقوانين الفكر ، فكان على كل العقلاء أن يصطفوا الشك ليتصدوا به لمنطق الشك الهدام ، لذلك رأينا ديكارت يشك فى : = معطيات الحس بحيث لم يستثن شيئا •

= معطيات العقل حتى لم تشذ عنه الا فكرة أنه يفكر •

= معطيات دينه لأن أصحابها من رجال الكنيسة صاروا محلا للشك فكيف يسلم الدين •

= كافة المعطيات التى تحيط به حتى ما كان يتعلق بآماله وذكرياته وحاضره ومستقبله بل حتى أمانيه وأسراره وأحلامه لظنه أنه من المحتمل أن يكون هناك شيطان خبيث هو الذى يلقى فى روعنا ما نعتقد أنه صواب بينما هو فى الحقيقة خداع وسراب •

ثم ان البيئة غالبا ما تعطى الانسان معلومات لا أساس لها كفكرة الغول والعنقاء وسائر المعطيات التي نتخيلها لنخيف بها الأطفال، أو نسكت بها الجياع ثم ننصرف الى انشاء بعد أن يدخلوا في نوم طويل، فربما تكون تلك المعلومات هي من نفس النسيج البيئي الذي لا أساس يعتمد عليه، ولا دليل يؤيده ، وأن الشك فيها أولى من التسليم بها ، وهو يؤكد أن كل شيء أمام منطق الشك محتمل وجائز .

ويبدو هذا السبب واهيا لأن معايشة البيئة التي تفرض تلك الأفكار لم تتوفر لديكارت لأن والدته ماتت ولم يتجاوز ديكارت عامه الأول . بجانب أن والده لم يكن صاحب ثقافة واسعة أو ثقافة تميل الى سرد القصص والتسلي بالأوهام . بل كان محدود الدخل، محدود الثقافة، يقضي وقته في العمل الجاد الدؤب .

كما أن والده لاحظ على ابنه مخايل الصفاء، وملامح الحيرة منذ أن كان صغيرا، وكانت تلك الحيرة تدفع به الى سؤال والده عنها . ومثل هذا العقل الذكي لا يرضى أن يشبع بالأوهام أو عيش الابل والأنعام بل هو عقلية ناضجة ترضى بالقليل من الطعام والكثير من المعارف التي تشبع الأفهام ولذا أطلق عليه أبوه اسم " الفيلسوف الصغير" . ومن كان هذا شأنه فلا تصلح ظروف البيئة لتكون أساسا لشكه المنهجي العميق وهو أبو الفلسفة الحديثة والهندسة التحليلية والتجربة العملية .

السبب الثاني : كثرة الترحال :

ومؤداه ٠ أن ديكارت وهو في المرحلة الثانية من حياته أعني مرحلة البحث والجمع والتأليف حبب اليه السفر ، وبخاصة بعد حصوله على الليسانس في الحقوق والماجستير فزار هولندا ، وايطاليا والمانيا ، وانجلترا ، كما زار الكثير من مقاطعات فرنسا موطنه الأصلي ، وكان ذلك كله بعد لقائه بالقائد الهولندي " موريس ديناسو " الذي تعلم ديكارت على يديه فن القيادة والحرب والكتابة ٠

وأن ذلك الترحال جعله يطالع أفكار هؤلاء ، ويستمع بخبرات أولئك وكان يقض مضجعه ازدياد حركة الشك التي يشاهدها في كل البلاد التي زارها، بجانب رغبته الملحة في أن يجد لتلك الحركة الشكية أبا يوقفها عند حده ، ولكن دون جدوى ، حتى كانت حادثة المدفأة ٠

= حادثة المدفأة :

" يحكي بعض المؤرخين له عن الحادث المعروف بحادث المدفأة ، "وذلك أنه كان في ألمانيا في بداية شتاء ١٦١٩ — أي وهو في الثالثة والعشرين من عمره ونزل بحجرة دافئة بمحلة منعزلة حيث لا صديق ولا أنيس ، فقضى سحابة يومه مفكرا في المعارف الانسانية ، وتمنى لو استطاع الانسان اكتساب معلوماته بطريق برهاني صحيح ، فلما جن الليل انعكست عليه هذه الأفكار في منامه ورأى كأنه أهتدى الى السير السليم ووضع فلسفة جديدة (١) وكان

(١) الدكتور / رفقي زاهر — أضواء على الفلسفة الحديثة والمعاصرة ص ١٦

ذلك سببا قويا لشكه المنهجي وأنه جاء نتيجة لكثرة السفر والترحال .

ورغم وجاهة هذا السبب فإنه لا يكفى للاعتماد عليه ، لأن حادثة المدفأة لا تعدو أن تكون حلما راوده ، ولو أن كل فيلسوف قامت فلسفته على مجرد أحلامه لامتلأت الارض بالفلاسفة بينما هم فى الحقيقة لا يتجاوزون العدد القليل ، ويصدق فيهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم " الناس مائة لا تجد فيها الا راحلة " (١) .

من ثم فان هذا السبب لا يصلح دليلا على أن اسباب الشك كانت بسبب كثرة الترحال التى الزم الفيلسوف الفرنسى بها نفسه ، وباع فى سبيلها ميراثه الكبير الذى آل اليه عن جدته ، وان كان الترحال جزءا من الأجزاء التى تكونت بسببها الرغبة الداخلية — لدى ديكارت — للشك ودفعته اليه .

السبب الثالث : ملكاته الشخصية :

ومؤداه : أن ديكارت منحه الله عددا من الملكات التى يتميز بها عن أترابه حيث تربى فى ظل " امرأة تقية منعته أن يمارس الألعاب التى يمارسها أطفال القرية ، وترعرع فى ظل الدلال ، فنشأ ذا عقل نسوى رقيقا متفكرا عزوفا عن الناس ، وكان أبوه يدعوه ضاحكا " فيلسوفى الصغير " (٢) ورغم أن تلك المرأة لم تكن أمه ، وانما كانت مربية له لوفاة أمه وهو لم يبلغ العام

---

(١) حديث شريف .

(٢) هنرى توماس ، دانالى توماس — أعلام الفكر الأوربى من سقراط الى سارتر ص ١١٠ ترجمة " عثمان نوية " .

الأول ، الا أنها كانت حريصة على تكوين ملكاته وتشجيع مواهبه وتنمية داخله " (١) .

وكان من جملة تلك الملكات قدرته على العزلة الاجتماعية ، وتوحده مع نفسه والأفكار التى ينشدها والمعارف التى يحب الوصول اليها ؛ وقد رأى أنه لا يستطيع أن ينهض بالواجب الذى اضطلع به الا اذا ابتعد عن معارفه ، وانفرد حيث يجد من الراحة ما يعينه على النظر والتفكير (٢) .

ثم ان ديكارت كان يحب راحة البال بعيدا عن جو السياسة ، وكان يرى أن هذا الجو هو المكان المناسب للعالم حتى لا يقبل على السياسة فتشغله شواغلها عن متابعة الدرس والبحث والتقصى ، ولما كانت الكنيسة تمثل فى الغالب رأى السلطان والساسة ، فإن ديكارت عمل على اظهار الولاء لها واحترام ما تنتهى اليه لذا تراه يقول " ولكن لما كنت لا أريد أن يصدر عنى قول يمكن أن توجد فيه كلمة واحدة لا تقرها الكنيسة ، فاننى أفضل أن الغى هذا القول على أن أظهره مشوها " (٣)

ومثل هذه الشخصية تستطيع أن تشك بشكل سافر لكنه فى نفس الوقت شك هادف يمكّن صاحبه من قطع المسافات الطوال فى وقت قصير جدا ، ثم ان تمسكه بدينه ومذهبه الكاثوليكى، ومحاولته مناصرة مذهبه بشكل لولبى كل

(١) " بينما يرى مقال عن المنهج أن هذه السيدة جدته فيقول : وعنيت بتربيته جدته اذ أن أمه ماتت بعد ولادته بنحو عام " مقال عن المنهج لديكارت ترجمة الاستاذ / محمود الخضيرى مراجعة د / محمد مصطفى حلمى ص ٧٩ الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثالثة ١٩٨٥م .
(٢) مقال عن المنهج ص ٩٥ (٣) المصدر السابق ص ٩٨

ذلك مكّن له من الشك وجعله يتفانى فى حب وطنه بنوع من التواضع الشديد والغيرة القوية ، مما حدا بالكثيرين إلى خصومته والحقد عليه، والتشكيك فى دينه وعقله وعلمه ، ورغم هذا فقد كانت تلك الملكات قوية مؤثرة لدرجة مكنت ديكارت من تخطى المعارف التقليدية الى شك منهجى يصل به فى النهاية لإقامة علوم على منهج تجريبى، يخدم الانسانية جمعاء، لكن بعد أن فارقها ديكارت وراحت خلايا بدنه تلتحم مع خيوط كفنه ، ولا يذكر الا فى مناسبات عامة أو معارض فكرية أو ندوات علمية ،أو ثقافية فلسفية ، أو تجريبية .

السبب الرابع : نزعته الصوفية :

ومفاده . أن سلطان الروحانيات قد استولى على مشاعر ديكارت وطغى على معلوماته العقلية الرياضية والطبيعية وغيرها ، وأنه صار يوجه ديكارت الى حيث يريد هو لا حيث يريد ديكارت نفسه ، وأن هذا السلطان الروحى جعل ديكارت يستغرق فى التأمل والتفكير فيتحقق له بسبب الحدس الوصول الى " قواعد علم يستحق الاعجاب " (١) .

ولقد كانت جوانحه — لشدة ايمانه الوجدانى — مهيأة لتقبل ذلك اللون من التفكير ، فما إن زاد حدة حتى طغى سلطان الروح على سلطان العقل، فاشتعل مخ ديكارت وصارت الأحلام والرؤى المفزّعة تصب أحمالها عليه لذلك

---

(١) مقال عن المنهج ص ٨٤

يقول " بابيه ٠ ان الفيلسوف استسلم للنوم بعد تعبه فى هذا الاستكشاف فرأى ثلاثة أحلام اعتقد أنها موحى بها من عند الله ، ولما استيقظ قرأ فى مجموعة شعر كان يحتفظ به ٠ أى سبيل من سبل الحياة تتبع " (١) ، ولا تكون تلك الرؤى صحيحة الا اذا وقعت لنبى لأن الأنبياء وحى (٢) ورؤيا المسلم الصالح التى تشير الى المستقبل المريح هى جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة بصحيح الحديث الشريف " (٣) ولكن ديكارت ليس نبيا بل ولا مسلما صالحا، وبالتالى فان مارآه يكون من قبيل الطمع فى المستقبل، أو نتيجة للصراع الداخلى الذى يملأ حياة صاحبه ضجيجا وصخبا ،ولا يمثل حياة وجدانية صادقة تجوب الماضى وتقفز الى المستقبل ٠

لكن هناك من يؤكد " أن الفيلسوف قد أخذه شىء من التصوف على أثر اكتشافه الكبير ، لأن الرجل العظيم اذا قام بعمل جليل لم يسبق اليه وأبصر فى لحظة واحدة مدى ما وصل اليه وما يمكن ان يصل اليه عمله نسى نفسه ، وفنى فى ذات أكبر من ذاته ، وآمن أن الفضل فى نجاحه انما هو لله " (٤) ويختلف المؤرخون فى هذا السبب ، وفى النتائج التى يعلقونها عليه ، والتاريخ الذى يحدث فيه هذا الكشف الصوفى الذى وصل فيه ديكارت الى " حالة صوفية سامية فرأى رؤيا " ليس للنفس الانسانية فيها

(١) المصدر السابق مقال عن المنهج ص ٨٥ نقلا عن بابيه حياة ديكارت جـ١ ص٥٠

(٢) ابن الجوزى دفع شبه التشبيه بألف التنزيه تحقيق الشيخ / محمد زاهد الكوثرى ص ٥٠ المطبعة التوفيقية بالقاهرة ٠

(٣) مختصر الزبيدى جـ١ (٤) مقال عن المنهج ص ٨٥

أى نصيب " وما دام الأمر كذلك فان هناك مشابهة تامة بين الغزالى وديكارت فى ذات الشك نفسه، وأن الغزالى خرج من شكه بنور قذفه الله فى قلبه، وأن ديكارت خرج من شكه بالصوت الألهى " انهض وأقم هيكل العلوم جميعها بنفسك ... ولسوف تهدى الى الانسانية العلم العام الذى يسع كل شىء " (١) وهذا النص يؤكد ما ذهب اليه البعض بأن كلاهما خرج من شكه بالنور الالهى .

---

(١) المصدر السابق ص ٨٨ ، ٨٩

قيمة الشك الديكارتي

تتجلى قيمة الشك الديكارتي في أمور منها :

١ ـ أنه طريق يختبر المعلومات والمعارف الانسانية ، ثم يفحصها ليصل الى نتائج واضحة محددة .

٢ ـ أنه المنهج المأمون فيما يتعلق بالمعارف الدنيوية والتأكيد على صدقها من عدمه ، وقدرتها على البقاء من عجزها عن المراجعة والاستقراء .

٣ ـ أن الشك يمنح الانسان قدرة على الاستقلال العقلي ، ورفض التقليد والتبعية لغيره، وذلك عن طريق مراجعة كل المعلومات التي حصل عليها ، والثقة في المعلومات التي قرر الاحتفاظ بها بعد اختبار سلامتها .

٤ ـ أن الشك " وسيلة للحصول على معرفة الحقيقة معرفة أوضح " (١) من أي معرفة أخرى .

٥ ـ التأكيد على القوة الفطرية في العقل وقدرتها على التمييز بل والاتجاه نحو الأمثل بعيدا عن قيود التبعية والاستغلال ، ولعله بهذا يوافق المعتزلة في أن العقل الانساني يكفيه أن يتوجه مباشرة الى الله بعيدا عن النبوة ، وذلك حين يفسرون الرسول بالعقل في قوله تعالى "وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا" .

---

(١) الدكتور / محمود حمدى زقزوق ـ المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت ص ١٥٩ الانجلو المصرية .

٦ ـ أن الشك يؤدى الى الحقيقة عن طريق فلسفى خاص ، مادام الشك منهجيا ، وقائما على غرض معين، بقى أمر محدد هو أن موضوع الشك عند ديكارت يبدأ من المعلومات التى وصلت الى العقل عن طريق الحواس ثم يتجاوزها الى المعلومات التى تخيلها العقل ذاته ، ليصل فى النهاية الى مبدأ ثابت وهام هو: أن الشك يتعلق بالمعرفة الانسانية كلها ولا يتعلق بالوجود أو القيم إلا كوسيلة لضمان الصدق والعدل أو تحقيق الاخلاق المؤقتة ، ومعنى هذا أن ديكارت يصب شكه على موضوع المعرفة، لا على ذات المعرفة، وهو أمر فى غاية الدقة ، بحيث إذا وصل فيها الى أمر يقينى، تمثلت له المعارف فى صورة يقينية يتمكن بها من وضع لبنات قوية فى مجتمع سليم ليتحقق له فائدة مأمولة وهو ما فعله أبو الفلسفة الحديثة فى كل معلوماته ومعارفه حتى تمكنه من ذلك بوضوح ، وصار بحق رمزا للعقلية الناضجة والتفكير الانسانى السليم .

وكما أن ديكارت فى فترة وجيزة صار " أبا للفلسفة الحديثة ، فقد دارت جملتها حول رحى المعرفة وأصبحت من رأسها حتى أخمص قدميها، فلسفة معرفية أولاً وقبل كل شيء ولا تنظر أبدا فى الوجود الا كما يبدو للذات العارفة " (١) .

---

(١) الدكتورة / يمنى طريف الخولى أهرام الجمعة ١٥/٤/١٩٨٨م عمود ٣

فكذلك صارت الفلسفة الديكارتية أمًّا لغيرها من الفلسفات التـــى تعاقبت عليها، وارتضعت ألبانها، وتمكنت منها أتم تمكين حتى كادت كلهـا أن تكــون فلسفة ديكارتية تحترف بالشك المنهجى وتهتف به ، وتؤكــد على أنه أصلح منهج يوصل الى الحقيقة الثابتة والعلم اليقينى ، سواء كان ذلك فى الرياضيات أم فى الطبيعيات أو فى الميتافيزيقا بنظرياتها الثلاث ، وموضوعها المتميز .

وقد أخبر ديكارت نفسه بأن الشك المنهجى عنده " هو الطريقـــة الفلسفية الموصلة الى اليقين " (١) اذن ديكارت يبحث عن اليقين والحقيقة كما أن له شغفا بالحكمة وكأنى به أصرخ فى وجدانه بقوله صلى الله عليـــه وسلم " الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها " (٢) .

---

(١) الدكتور / جميل صليبا ـ المعجم الفلسفى ص ٧٠٥

(٢) حديث شـــريف .

الفصل الخامس

علاقة التأثر والتأثير بين الغزالى وديكارت

تمهيـــــد :

ظلت مسألة تأثر ديكارت الفيلسوف الفرنسى بالامام الغزالى — حجة الاسلام — تمثل مشكلة مستعصية فأحباب الغزالى وعشاقه والمولعين بآرائه وأفكاره ، يؤكدون على سبقه لديكارت فى الزمان ، وتلك حقيقة لامراء فيها ، ثم يصرون على أن ديكارت قد تأثر بالامام الغزالى فى كل دراساته الفلسفية وبخاصة منهجه الشكى الذى تربعت على أسسه الفلسفة الحديثة ، رغم عدم وجود دليل لهم على هذا الرأى يدفعهم الى ذلك الاصرار .

بينما وقف أتباع ديكارت × يجادلون غيرهم ويزودون عن حمى فيلسوفهم أبى الفلسفة الحديثة ، ويؤكدون على أن منهجه من بنات أفكاره ، وأبكار الهاماته وأسراره ، وأن تأثره بالغزالى أمر منكر، بعدها فى الزمان ، واختلافهما فى المكان، وتباعد ما بينهما فى الاعتقاد بين الأديان،ثم ما انتهى اليه كل منهما بعد رحلته الطويلة وتخللها للشك المرير ، وهم لا دليل عندهم على عدم تأثره ، الا الظنون ورجم الغيب .

وباتت المسألة أكثر صعوبة ، كلما جدّ عليها الناس، حاولوا أن يوفقوا بين الفريقين أو يناقشوا حجج المتخاصمين ، فاذا استشعروا قلقا يفرض سلطانه عليهم هربوا الى الراحة أملين الهدوء راجين السكينة ، وقد يتحمس بعضهم للاستمرار فى هذا الطريق بغرض التوفيق ، ولكن فى النهاية لايجد قبولا لما انتهى السند من هؤلاء أو أولئك .

وصار من المؤكد أن هناك شَبَهًا قويا يفرض نفسه فى تكبر وعناد بيـــن المنهج الشكى عند الامام الغزالى وديكارت فى كل من النواحى الآتية :

١ ـ الشك المنهجى لدى كل منهمـــا •

٢ ـ موضوع الشك عندهما ـ المعارف الانسانية •

٣ ـ غاية الشك عندهما ـ تخليص العقول من الأوهام والوصول الى العلـم اليقينى •

٤ ـ فى الحواس والمدركات المحسـة •

٥ ـ فى القضايا العقلية التى لا يمكن البرهنة عليها حتى تصير كالبراهيـن الرياضية يقبلها العقل ويسلم بها •

٦ ـ استثناء كل منهما للوحى والحقائق الالهية من مجال الشك •

٧ ـ انتهاء كل منهما الى التصوف والانحناء للثورة الروحية •

٨ ـ تأثير كل منهما فيمن خلفه لقرون عديدة ، مع الاختلاف البين فى تأثير كل منهما على الفلسفة والفلاسفة فعلى حين توارت الفلسفة وحورب الفلاسفة بعد الغزالى فقد برزت الفلسفة ونشط الفلاسفة على أثـــر ديكارت ، وظهرت العديد من الفلسفات التى سميت فيما بعد بأسماء أصحابها مرة، وباتجاهاتها مرات •

لذا كان الواجب علينا أن ندرس القضية من ناحيتها الفنية ، بحيـث اذا صدر حكم كانت له حيثياته التى يعتمد عليها سواء من ناحية تأثيـــر

الغزالى على ديكارت أو استقلال ديكارت فيما نحن بصدد بيانه من حقيقة الشك عندهما ، فلنشرع فيه بعون الله تعالى .

(أ) التأثر الامام الغزالى

لقد تأثر الغزالى بكل الافكار والآراء والمذاهب التى سبقته وتمكن من الوصول اليها ، وكونت فعلا ثقافته سواء كانت مذاهب فقهية أو كلامية أو فلسفية أو صوفية أو باطنية ، وكانت له الفرصة التى اغتنمها ، حتى تمكن من بناء عقله وتكوين فكره ، وحتى رسخت لديه ملكة النقد والموازنة واستقرت على قواعد يميز بها الحق من الباطل،والصواب من الخطأ ، وكان لكل منها أثره البارز عليه .

وأنصع دليل أنه هاجم الفلسفة وكفّر بعض الفلاسفة ، وهاجم بعض القضايا ، ومع هذا تأثر بها جميعا فتراه يستخدم مصطلحاتهم ونفس المضمون بل ونفس المعنى أحيانا حتى تمكن ابن تيمية من الغزالى وقال عنه: " انه دخل بطون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر " (١)

اذن تأثر الغزالى بالفلاسفة كما تأثر بالصوفية وغيرهم،لكن بعد أن قويت ملكته وصارت قديرة على النقد،بدأ يخرج مؤلفاته الخاصة والتى تمثل وجهة نظره فى العلوم والمسائل التى تعرض لها ، وما من شك فى أن الفكر الانسانى يزاوج بعضه بعضا حيث هو تراث الانسانية الكامل ، وكتابها

(١) د / محمد غلاب ــ المعرفة عند مفكرى المسلمين ص ٣٣٦ دار الجيل للطباعة ــ الدار المصرية للتأليف والترجمة .

وكتابها العام ، أنه منحة الله لعباده ، والنور الذى به يستضيئون بعد رسل الله وكتبه .

(ب) تأثيره فى ديكارت

أما تأثيره فلا يخفى على دارس أثر الغزالى فى فروع العلم المختلفة واصطناع الكثير من الباحثين منهج الغزالى فى كل من التأليف والبحث بل والشك والمسائل الفقهية والقضايا الصوفية مما لا مجال لذكره هنا .

بيد أن تأثيره على ديكارت فى المنهج الشكى صار واضحا للأسباب الآتية :

١ ــ أن الغزالى دعى للاستقلال العقلى وهو نفس ما دعى إليه ديكارت .

٢ ــ أن الغزالى رفض الحواس كأسس معرفية ومثله ديكارت تماما .

٣ ــ أن الغزالى دخل شكه بحيرة شديدة سببها كثرة الفرق واختلاف الآراء والمذاهب وكذلك ديكارت دخل شكه بسبب ظروف بيئته واختلاف الآراء حوله .

٤ ــ أن الغزالى خرج من شكه بنور قذفه الله فى قلبه ، وكذلك ديكارت خرج من شكه برؤيا اعتبرها حقا، هى: انهض وأقم هيكل العلوم جميعها بنفسك " (١) .

---

(١) مقال عن المنهج ص ٨٨

٥ ـ أن الغزالي أكد على أن الذى أخرجه من محنته، ونجاه من شكه، هو النور الالهى، أو بمعنى أدق إنه الله تعالى، وهو نفسها يؤكد ه ديكارت، حيث " أبصر فى لحظة واحدة مدى ما وصل اليه ، وما يمكن أن يصل اليه عله نسى نفسه ، وفنى فى ذاته أكبر من ذاته ، وآمن أن الفضل فى نجاحه انما هو الله " (١) وبالتالى صارت المشابهة فى المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت ليست وليدة مصادفة إنما هى نتيجة سليمة لمطالعة ديكارت كتاب الغزالى" المنقذ من الضلال .

٦ ـ لقد حافظ الغزالى على عقيدته فلم ينزلها إلى الشك بل جعلها فى مأمن منه ، ومثله تماما ديكارت فحين أعلن الشك فى كل شىء استبقى ذات الله تعالى، والحقيقة التى توجد فى الكتاب المقدس.

٧ ـ استسلم الغزالى للنور الفطرى الذى طالب العقلاء جميعا أن يهتموا به ، ويعملوا على تنميته فى صدورهم، ومثله ديكارت حتى أن ديكارت ألف رسالة اسمها " بحث الحقيقة عن طريق النور الفطرى " (٢) .

٨ ـ أن الغزالى حين كتب أبحاثه الفلسفية قصرها على عدد قليل من الناس الذين يتوسم فيهم الفطانة والذكاء فتراه فى القسطاس يقول " أن من نبض عليه عرق من عروق التقليد لا يصلح لصحبته " (٣) . وهو نفسه

---

(١) مقال عن المنهج ص ٨٥

(٢) د / محمود حمدى زقزوق المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت ص ٥٦

(٣) القسطاس المستقيم ـ الامام الغزالى ص ٧٩ .

ما يؤكد عليه ديكارت فيقول " بل انى لا أنصح بقراءته بتاتا لأحد من الناس إلا لمن يريدون أن يتأموا معى تأملا جديا ... وأنا أعلم علم اليقين . أن هؤلاء نفر قليل جدا " (١) .

اذن المشابهة قوية،وتأثير الامام الغزالى على ديكارت فى الفلسفة ، وبخاصة المنهج الشكى واضح،وان منكره ربما لم تقع يده على ما وقعنا . ولم يوفق الى ما وقفنا عليه،أما العلوم الطبيعية والرياضية فلا يشك أحد أن ديكارت قد استفادها من أولئك الرياضيين ومن معرفته بقواعد تلك العلوم وأشادته صرحه الفنى الكبير على تلك القواعد التى وضع أسسها أو أقام عليها بناءه الرياضى والطبيعى.ويكفى ديكارت أنه الأب الرسمى للفلسفة الحديثة، والمفكر الاصيل للهندسة التحليلية . وصاحب القواعد الأربع والشك المنهجى الذى طوّر فيه وطوّع .

---

(١) التأملات ص ٣٥ / ٣٦ ترجمة الدكتور / عثمان أمين مكتبة القاهرة الحديثة

دراســــــة ورأى

تدعى احدى الدراسات التى وقعت عليها ان شك الغزالى غير شك ديكارت وأن شك ديكارت لم يكن " مأخوذا من شك الغزالى . ولا شبيها له بحال . فصحيح أن الامر لا يخلو من بُعد نفسى هأن كل ابداع أصيل فى الفن والفلسفة أو العلم . ولكن لم يدفع ديكارت إلى الشك حيرة بيـــن الفرق . بل قرار ارادى وعزم أكيد على ان يقيم النسق الحديث للعقـــل الحديث فى العصر الحديث ... والهرولة وراء التشابهات السطحية . تجعلنا نتصور أنها أصبحت هكذا بسبب الشك المحض الى اليقين الـــذى أفسح لها المجال وجعلها تنفرد به . خصوصا وان الشك اقترن بمنهــج ديكارتى له اهميته الفلسفية وأدى إلى نشأة الهندسة التحليلية على يـــد ديكارت " (١)

ورغم ان هذه الدعوى لم تجد سندا واحدا لها . إلا العبارات الانشائية والدعاوى الفضفاضة فإنها تقبل حتى نعرضها على ديكارت نفسه لنتعرف ما اذا كانت مقبولة عنده أم لا .

١ — يؤكد ديكارت أن الذى دفعه الى شكه هو الحيرة الموجودة — لا بين الفرق كما هو الحال مع الغزالى — بل بين الأعمال الانسانيـــــة واحتياجاتها الى الكمال الذى يوجد فى العمل الذى يقوم به فـــرد واحد فيقول " وكان أول ما فكرت فيه أننى لاحظت أنه كثيرا ما تكون

(١) الاهرام المصرية الجمعة ١٥/٤/١٩٨٨ - د / يمنى طريف الخولـــى اليقين والعلم بين الغزالى وديكارت .

الأعمال المؤلفة من أجزاء كثيرة ، صنعتها أيد وحذاق مختلفين . ليس فيها من الكمال مثل ما في الاعمال التى صنعها واحد " (١) والكل في ذلك سواء،الاعمال العلمية والمبانى وقوانين الأمم والشئون الانسانية على العموم " من اجل هذا لم اكن لأقر في شيء تلك الأمزجة المرتبكة القلقة التى لم يدعها نسب ولا مكانة لادارة الشئون العامة " (٢) .

فأين الدعوى التى تقول:ان شك ديكارت شك بقرار ارادى ، فأين ارادته هنا وقد وجد حوله عددا من القوانين والاعمال الانسانية والظروف والملابسات وكلها تستدعيه لأن يقوم بواجبه على النحو الأمثل الذى يتيح له الوصول الى منهج ايجابى،بل قل هى التى اجبرته على هذا اللون من الشك ماكان لنها أن تخالفه ،لو فكرت في الخروج عليه .

٢ — يعلن ديكارت ان شكه المنهجى وليد الظروف كالغزالى تماما غير أن الغزالى كان أسرع وصولا لليقين من ديكارت فيقول ديكارت " وعلى كل حال فقد انقضت تلك السنوات التسع قبل أن استقر على رأى في المعضلات التى هى في العادة موضوع نزاع بين العلماء " (٣) فهل كان يملك ديكارت قرارا اراديا في شكه ؟ اعتقد أنه لو كان يملكه ما انتظر تسع سنوات ثم يعلن عدم وصوله الى راى محدد في المعضلات التى وجدها محل نزاع بين العلماء

(١) مقال عن المنهج ص ١٧٨ / ١٧٦
(٢) المرجع السابق ص ١٨٣
(٣) المصدر السابق ص ٢٠٦

إن ديكارت بهذا يتوج الرأى القائل بأن ديكارت تأثر كثيراً بالغزالى فى منهجه الشكى ويقوض دعائم الرافضين ٠

٣ ـ كتب أحد المعاصرين لديكارت سيرة حياته فقال " إن الفيلسوف استسلم للنوم بعد تعبه فى هذا الاستكشاف فرأى ثلاثة أحلام اعتقد أنها موحى بها من عند الله ٠ ولما استيقظ قرأ فى مجموعة شعر كان يحتفظ به أى سبيل من سبل الحياة تتبع ؟ أليست هذه الأحلام هى التى رأى مثلها الغزالى من قبل ؟ ثم أهل يكون قرار ديكارت فى المنهج الشكى ـ بعد كل ما رأى ـ قرار اراديا أملاه على نفسه وألزمها به ٠

إن الباحث المنصف يرى أن هذه الدراسة ـ اليقين والعلم بين الغزالى وديكارت ـ كانت عجولة متسرعة ولو قدر لها أن يراجعها كاتبها فربما تغير رأيه وبخاصة إذا كان ينشد الحق ويبحث عن الحقيقة التى نامت فى خدرها بين كاره مذم أو عاشق وله ٠

كلمة ختامية وشهادة وثائقية

" لقد كان المؤرخون للفكر الفلسفى فى حيرة بسبب عدم عثورهم على المستندات التاريخية التى تثبت حقيقة العلاقة بين فكر الغزالى وفكر ديكارت ، فالمشابهة قوية جداً، والمداد الذى سودت به فيها الصفحات كثير جداً ، لدرجة أن بعض الباحثين ، أعنى أستاذنا الدكتور / زقزوق قد حصل على الدكتوراه فى المقارنة بين الغزالى وديكارت ، ولكن مجرد المشابهة — رغم قوة تماثلها — لا تكفى لدى الباحثين العلميين لاثبات صدرية السابق للاحق ، ولكن إرادة الله سبحانه وتعالى أبت إلا أن تظهر الحقيقة على يد أحد علماء المسلمين ، وهو المؤرخ التونسى " عثمان الكعّاك " الذى استطاع أن يصل الى مكتبة ديكارت فى باريس ، وعثر بين محتوياتها على ترجمة لكتاب المنقذ من الضلال للامام الغزالى فى القرن الخامس الهجرى .

وكانت المفاجأة عندما وجد أن ديكارت وقف عند عبارته " الشك أول مراتب اليقين " ووضع تحتها خطًا أحمر ثم كتب على الهامش يضاف ذلك إلى منهجنا " (١) ولو أنصف لقال يوضع المنهج كله فى منهجنا " (٢)

(١) بايبه / حياة المسيو ديكارت جـ١ ص ٥٠ / ٥١ نقلا عن مقال المنهج ص ٨٥

(٢) اخبار اليوم ٣ / ٧ / ١٩٧٦ م الصفحة السادسة .

(٣) د / قنديل محمد قنديل السيد أساس التحسين والتقبيح لدى الاسلاميين ومقارنته بمذهب كانت هامش ص ٢٦٧ دكتوراة مخطوطه بكلية اصول الدين بالقاهرة .

وبعد هذا التطواف وتلك الشهادة التى قصد بها الحق والحقيقة والتى تعتبر شهادة وثائقية ، فقد آن لنا أن نولى وجهنا شطر توفيق الله تعالى نسأله الهداية والرشد، والعصمة من الهوى والزلل، والنجاة من كل سوء إنه سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم النصير .

وان تكن تلك النتائج قد جاءت على عجل فما ذلك الا للظروف وآمل ان يمد الله فى العمر، فأصحح منه ما أخطأت فيه ، وأصوب منه مالم أصوب ، وعلى الله توكلت . والحمد لله رب العالمين .

اهـم المصـادر

روعى فى ترتيب المصادر كما جاءت بهامش البحث

١ - القرآن الكريـم ....

٢ - المعجم الفلسفـى الدكتور / جميل صليبا - دار الكتاب اللبنانى

٣ - مختار الصحاح .....

٤ - التعريفـات - الامام الجرجانى ...

٥ - محاضرات فى علم الكلام - الدكتور / على محمد جبر .

٦ - المنقذ من الضلال - الامام الغزالى تحقيق د / عبد الحليم محمود .

٧ - شرح السلم - شهاب الدين احمد الملوى .

٨ - ديكارت - الدكتور / عثمان أمين ......

٩ - أسس الفلسفة - الدكتور / توفيق الطويل ..

١٠ - التأملات ... رينيه ديكارت ترجمة الدكتور / عثمان أمين .

١١ - جريدة الأهرام المصرية عدد الجمعة ١٩٨٨/٤/١٥ م مقال اليقين والعلم بين الغزالى وديكارت دكتورة / يمنى طريف الخولى

١٢ - ميزان العمل - الامام الغزالى ....

١٣ - الأخلاق عند الغزالى - الدكتور / زكى مبارك ط الشعب .....

١٤ - تهافت الفلاسفة - تحقيق الدكتور / سليمان دنيا - الطبعة الخامسة

١٥ - المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت د / محمود حمدى زقزوق - الانجلو المصرية .

١٦ ـ الاقتصاد فى الاعتقاد للامام الغزالى تحقيق الدكتور طاهر عبدالمجيد .

١٧ ـ أضواء على الفلسفة الحديثة والمعاصرة ـ الدكتور / رفقى زاهر ..

١٨ ـ أعلام الفكر الاوربى من سقراط إلى سارتر ـ تأليف هنرى توماس ودانلى توماس ترجمة الاستاذ / عثمان نوية .

١٩ ـ مقال عن المنهج ـ ديكارت تحقيق الاستاذ / محمود الخضيرى تقديم الدكتور / محمد مصطفى حلمى .

٢٠ ـ دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه ـ ابن الجوزى ـ تحقيق الشيخ / محمد زاهد الكوثرى .

٢١ ـ مختصر الزبيدى للامام الزبيدى فى الحديث الشريف ......

٢٢ ـ المعرفة عند مفكرى المسلمين ـ د / محمد غلاب ....

٢٣ ـ القسطاس المستقيم ..... الامام الغزالى ....

٢٤ ـ اخبار اليوم المصرية ٣ / ٧ / ١٩٧٦ م ....

٢٥ ـ أساس التحسين والتقبيح لدى الاسلاميين ومقارنته بمذهب كانت ه دكتوراه / د / قنديل محمد قنديل السيد .

م . كمال

الفهـــرس

تابع الفهرس